دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	دراسات قرآنية : عظَمة القرآن
المصدر:	التوحيد
الناشر:	جماعة أنصار السنة المحمدية
المؤلف الرئيسي:	البصراتي، مصطفى
المجلد/العدد:	س 41, ع 483
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	2012
الشهر:	ربيع الأول / يناير
الصفحات:	23 - 25
رقم MD:	192122
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	القرآن الكريم، فضائل القرآن، إعجاز القرآن
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/192122

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

دراسات قرآنية

عظمة القرآن

إعداد/

مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام علي رسول الله وعلي أله وصحبه ومن والاه، وبعدُ: فما يزال حديثنا متصلاً حول عظمة القرآن، فمن عظمته أنه تنزيل رب العالمين:

القرآن تنزيل رب العالمين

قال الله تعالى: «وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣)» [الشعراء :١٩٢- ١٩٣]، أسند الله – جل جلاله – إنزال القرآن إلى نفسه في خمسين آية من آيات القرآن المجيد أو يزيد، وفي هذا دلالة على كمال العناية الإلهية بالقرآن، مما يهز المشاعر ويحرك الوجدان، ويبعث على تربية المهابة منه عند سماعه.

كما أن في ذلك تنبيهاً على أنه مُنَزل من لدن حكيم خبير، وكمال القائل يدل على صدق المقول، وعظمته مكتسبة من عظمة مُنزَله.

وقال تعالى: « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) »[القدر:١]، وفي إسناد الإنزال إليه تشريف عظيم للقرآن، ولا شك أن هذا «تنويه بشأن القرآن الكريم وإجلال لمحله، بإضماره المؤذن بغاية نباهته المغنية عن التصريح به، كأنه حاضر في جميع الأذهان، وبإسناد إنزاله إلى نون العظمة المنبئ عن كمال العناية به».

فمن عظمة القرآن أنه نزل من الله تعالى وحده لا من غيره، لنفع الناس وهدايتهم فاجتمعت في القرآن العظيم خمس فضائل:

١- أنه أفضل الكتب السماوية.

٢- نزل به أفضل الرسل وأقواهم، الأمين على وحي الله تعالى.

٣- نزل على أفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.

٤- نزل لأفضل أمة أخرجت للناس.

٥- نزل بأفضل الألسنة وأفصحها، وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين.

القرآن مستقيم ليس فيه عوج:

أثنى الله تبارك وتعالى – الذي لا نحصي ثناء عليه، هو كما أثنى على نفسه — وذكر أنه مستحق للحمد على إنزاله القرآن العظيم؛ تنبيهاً منه تعالى على أنه أعظم نعمائه؛ لأنه الهادي إلى ما فيه كمال العباد، والداعي إلى ما فيه صلاح المعاش والمعاد، وقد علُم عبادَهُ كيف يحمدونه على إفاضة هذه النعمة الجليلة، فقال سبحانه: « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) » [الكهف: ١-٢].

قال أهل اللغة: إن العِوَجَ في المعاني كالعوج في الأعيان، ونفي العوج عن القرآن له عدة أوجه، منها: الأول. نفي التناقض عن آياته، كما قال تعالى:« وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) » [النساء:٨٢].

الثاني: أن كل ما ذكر الله تعالى في القرآن، من التوحيد والنبوة والأحكام والتكاليف فهو حقٌ وصدق، ولا خلل في شيء منه البتة.

وأخبر تعالى كذلك عن القرآن أنه ليس فيه تضاد ولا اختلاف ولا عيب من العيوب التي في كلام البشر، فقال: « قُرْءانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) » [الزمر: ٢٨] أي ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في ألفاظه، ولا في معانيه، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته، فقد وصف الله تعالى كتابه العزيز بوصفين عظيمين، مشتملين على أنه الكامل من جميع الوجوه، وعظيم بكل ما تُعبَر عنه الكلمات، وهما:

١- نفي العوج عنه: وهذا يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث.

٢- إثبات أنه مستقيم مُقيم: فالقرآن العظيم مستقيم في ذاته، مقيم للنفوس على جادة الصواب، وإثبات الاستقامة يقتضي أنه لا يخبر ولا يأمر إلا بأجل الإخبارات، وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفة وإيماناً وعقلاً، كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، والإخبار بالغيوب المتقدمة والمتأخرة.

وأن أوامره ونواهيه تزكي النفوس وتطهرها، وتنميها وتكملها؛ لاشتمالها على كمال العدل والقسط والإخلاص، والعبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له.

فحقيق بكتاب موصوف بما ذكر أن يحمد الله تعالى نفسه على إنزاله.

وبنفي العوج عن القرآن الكريم، وإثبات استقامته، تتجلى عظمته وعلو شأنه ومنزلته عند الله تعالى.

خشوع الجبال وتصدعها

فلقد بلغ من شأن القرآن وعظمته، وشدة تأثيره أنه لو أُنزل على جبل من الجبال وجُعل له عقل كما جعل للبشر، لرأيت الجبل – مع كونه في غاية القسوة والصلابة – خاشعا متصدعا من خشية الله، كما قال الله تعالى: «) لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »[الحشر:٢١] أي: لأَتعَظ الجبلُ وتصدع صخره من شدة تأثره من خشية الله.

ففي هذا «بيان حقيقة تأثير القرآن وفاعليته في المخلوقات، ولو كانت جبلاً أشم أو حجراً أصم».

وضُرب التَّصدُّع مثلاً لشدة الانفعال والتأثر؛ لأن منتهى تأثر الأجسام الصلبة أن تنشق وتتصدع ولا يحصل ذلك بسهولة.

والخشوع: هو التطأطؤ والركوع، أي لرأيته ينزل أعلاه إلى الأرض.

والتصدع: التشقق، أي لتَزلزَل وتشقق من خوفه سبحانه وتعالى.

ولا شك أن هذا تعظيمٌ لشأن القرآن، وتمثيلٌ لعلو قدره وشدَّة تأثيره في النفوس؛ لما فيه من بالغ المواعظ والزواجر، ولما اشتمل عليه من الوعد الحق والوعيد الأكيد؛ فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن –كما فهمتموه – لخشع وتصدع من خوف الله تعالى، فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره، وتدبرتم كتابه.

والمقصود من إيراد الآية: إبراز عظمة القرآن الكريم، والحث على تأمُّل مواعظه الجليلة، وأداءٌ حق الله تعالى في تعظيم كتابه، وتوبيخ من لا يحترم هذا القرآن العظيم، وفيه كذلك تمثيل لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ

انقياد الجمادات لعظمة القرآن

يقول الله تعالى مبيناً ومنبهاً على عظمة القرآن وتأثيره: « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى » [الرعد: ٣١]، فهذا شرط جوابه محذوف، والمراد منه: تعظيم شأن القرآن العظيم.

والمعنى: ولو أن قرآناً سُيِّرت به الجبال عن مقارِها، وزعزعت عن مضاجعها، أو قطعت به الأرض حتى تتصدع وتتزايل قطعاً، أو كُلم به الموتى فتسمع وتجيب لكان هذا القرآن؛ لكونه غاية في التذكير ونهاية في الإنذار والتخويف».

وفي بيان المقصود هنا يقول أبو السعود رحمه الله: «والمقصود بيان عظم شأن القرآن العظيم، وفساد رأى الكفرة؛ حيث لم يقُدروا قدره العلي، ولم يعدوه من قبيل الآيات فاقترحوا غيره، مما أوتى موسى وعيسى عليهما السلام... فالمعنى: « وَلَوْ أَنَّ قُرْءانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ » (الرعد: ٣١) أي: بإنزاله أو بتلاوته عليها،

وزُعزعت عن مقارها كما فُعل ذلك بالطور لموسى عليه السلام،« أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ » (الرعد :٣١) أي شققت وجعلت أنهاراً وعيوناً، كما فعل بالحجر حين ضربه عليه السلام بعصاه، أو جُعلت قطعاً متصدعة، أو «كُلم به الموتى »أي: بعدما أحييت بقراءته عليها، كما أحييت لعيسى عليه السلام، لكان ذلك هذا القرآن؛ لكونه الغاية القصوى في الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى وهيبته». فمما تقدم يتبين لنا عظمة القرآن وعلو شأنه ومنزلته وتأثيره.

تحدي الإنس والجن بالقرآن

من مظاهر عظمة القرآن وعلوٍ شأنه أن الله تعالى تحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة مثله. قال الله تعالى: « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) » (الإسراء:٨٨) «قل » لا يقولها الحق سبحانه بينه وبين رسوله، بل المراد: أعلنها يا محمد على الملأ، وأسمع بها الناس جميعاً لأن القضية قضية تحدٍ للجميع». ولقد ثبت بما لا يدع ثلمةً لمرتاب أن القرآن العظيم تنزيل من رب العالمين على خاتم المرسلين، وأن الخلق جميعاً لو تضافرت جهودهم واتحد رأيهم على غاية واحدة هي أن يأتوا بمثل هذا القرآن في قمة فصاحته، وذروة بلاغته، وعُمق معناه، وما احتواه من شرائع وآداب، لم ولن يأتوا بمثله.

ولما لم يعتدِ المعارضُ بالوحي، ولم يقتنع بما فيه من المعجزات الدالة على كونه من عند الله تعالى، وعلي حقيقة نبوته صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن محمداً اختلقه عمداً من تلقاء نفسه، أرخى الله تعالى لهم العنان، وأضرب عز وجل عما قالوه، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم إن كان الأمر كما تقولون، فأتوا أنتم –أيضا – بعشر سور مثله في البلاغة وحُسنِ النظم مختلفات من عند أنفسكم– إن صح قولكم: أني اختلقته من عندي– فإنكم أهل العربية وفرسانها، واقدر على ذلك مني، وادعوا من استطعتم دعاءَهُ والاستعانة به – من دون الله – إن كنتم صادقين أني افتريته، فإن لم تفعلوا، فاعلموا أن الذي أنزله هو الله تعالى، واعلموا أيضاً أن لا شريك له في الألوهية، ولا يقدر أحد على ما يقدر هو عليه، فهل أنتم مخلصون في الإسلام أو ثابتون عليه؟

يقول الله تعالى: « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤) » (هود: ١٣ – ٤)، ومع ذلك كله، ما ثابوا إلى رشدهم وما وجدوا ما يتكلمون به، فعادوا لما نهوا عنه وقالوا: «اختلقه محمد عمداً»فاستدرجهم الله تعالى من حيث لا يعلمون، ووصل بهم إلى غاية التبكيت والخذلان، وتحداهم أن يأتوا بسورة مثل القرآن فعجزوا، قال الله تعالى « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) »(هود: ١٣)، ولما بُهت الذين كفروا، ولم يستسلموا،صاروا كالذي يتخبطه الشيطان من المس، مرة يقولون استهزاء: « وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١)» (الأنفال: ٣١).

وأخرى يقولون عابثين. « ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ » (يونس:١٥)، وصار أمرهم على ما يقول الله تعالى: « بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ »(يونس: ٣٩)، « بَلْ كَذَّبُوا » بل سارعوا إلى التكذيب، « بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ » (يونس: ٣٩) بالقرآن أول ما سمعوه قبل أن يتدبروا آياته، ويحيطوا بالعلم بشأنه، أو بما جهلوه ولم يحيطوا به علماً من ذكر البعث والجزاء، وسائر ما يخالف دينهم، « وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ » (يونس: ٣٩) ولم يقفوا بعد على تأويله، ولم تبلغ آذانهم معانيه أو: ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب حتى يتبين لهم أنه صدق أم كذب، والمعنى: أن القرآن معجز من جهة اللفظ والمعنى، ثم إنهم سارعوا بتكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ويتفحصوا معناه، ومعنى التوقع في (لما): أنه قد ظهر لهم بالآخرة إعجازه لما كرر عليهم التحدي فزادوا قواهم في معارضته، فتضاءلت دونها، أو لما شاهدوا وقوع ما أخبر به طبقاً لإخباره مراراً فلم يقلعوا عن التكذيب تمرداً وعنادا « كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » (يونس: ٣٩)أنبياءهم « فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ »(يونس: ٣٩) فيه وعيد لهم بمثل ما عوقب به من قبلهم». انتهى من تفسير البيضاوي.

فهذا القرآن العظيم ليس ألفاظاً وعبارات يحاول الإنس والجن أن يحاكوها، كلا وربي، إنه كلام الله تعالى الذي تحدى به الخلق كلهم فقال عز من قائل: « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) » (الإسراء: ٨ ٨) ، فهذا تنويه بشرف القرآن وعظمته.

وهذه الآية ونحوها تسمى آيات التحدي، وهو تعجيز الخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم أو سورة منه، فكما أنه ليس أحد من المخلوقين مماثلا لله في أوصافه، فكلامه من أوصافه، التي لا يماثله فيها أحد، فليس كمثله شيء في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله تبارك وتعالى، فتباً لمن اشتبه عليه كلام الخالق بكلام المخلوق، وزعم أن محمداً افتراه على الله وأختلقه من نفسه». تفسير السعدي.

فعظمة القرآن وعُلُو شأنه لا تجعل للخلق من إنس وجن مطمعاً في الإتيان بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. وللحديث بقية.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.